معرفة العلماء العرب القدماء باللغات السامية

د. عبد الوهاب محمد عبد العالي❖

الذي تدل عليه إشارات القدماء في مصنفاتهم اللغوية، أنهم لم يكونوا –أو بعضهم على الأقــل– يجهلون القرابة اللغوية بين اللغات السامية، فتنقل الأخبار معرفة بعض العرب بلغــات جيــرانهم، أو كونهم على صلة بأصحاب لغات غير لغتهم، ومن ذلك ما روى عن امرئ القيس ونزوله على قيصر ملك الفرس طالباً النصر لاسترجاع ملك أبيه[1]، وأُمية بن أبي الصلت الذي كان يحكــي فــي شــعره قصص الأنبياء ويقرأ الكتب المتقدمة، وأتى بألفاظ كثيرة لا تعرفها العرب[2]. ويشار إلى أن زيد بــن ثابت أمره الرسول –صلى الله عليه وسلم– أن يتعلم العبرانية، والسريانية فتعلمهما، فكان يكتب لليهود بلغتهم[3]. وقد رأى بعض الباحثين المحدثين أن العلماء العرب القدماء لم يكونوا يعلمون أن أصل هذه اللغات واحد وهو ما أطلق عليه حديثاً اسم اللغة السامية الأم، وهي لغة مفترضة حتى الآن ولايمكن تجميعها وفي هذا يقول إبراهيم السامرائى: "ولم يهتدوا إلى أن بين العربية والعبرانيــة والــسريانية والحبشية ولغات أخرى علاقات تاريخية، وقرابات لغوية مردها الأصول السامية الأولــى التــي دلّ عليها البحث الحديث"[4] وأما تسميتها باللغات السامية، فهي تسمية خاضعة للرؤى التوراتية، ويدخل في إطار هذه التسمية مجموعة من اللغات، بعضها تحول إلى نقوش مرئية انتهى الجانب الــسمعي فيهــا وبعضها الآخر تتفاوت درجات استعمالها وانتشار المتكلمين بها[5].

الحقيقة إذا كان المستشرقون لم يعرفوا العلاقة بين اللغات السامية إلاّ منذ القرن الثــامن عــشر الميلادي، فإن العرب -من قدامى اللغويين- قد أدركوا هذه العلاقة منذ فجر التأليف في العربيــة[(6)]. فهناك نصوص وشواهد كثيرة تؤكد معرفة علماء العرب باللغات السامية وغيرها، كتلك التي أطلقوا عليها اللغات الأعجمية.

❖ جامعة 7 أكتوبر – كلية المعلمين – مصراتة – ليبــيا.

لقد كان ابن عباس (ت 68هـ) -وهو بلا شك- أول فقيه لغوي بارع واعٍ بالكلمات الأجنبية، وقد بعثه اهتمامه الأول بالقرآن الكريم إلى أن يبحث في تأصيل مفرداته، ويرجع إليه وإلى مدرسته الفضل في استخراج عدد من الكلمات القرآنية ذات الأصل الأجنبي[7] فقد نسب إليه كتاب اللغات في القرآن، فذكر فيه مجموعة من اللغات كالنبطية والرومية، والعبرانية وغيرها من اللغات[8] وكذلك كتاب لغات القبائل الواردة في القرآن المروية عنه، فقد أصّل فيه لمجموعة من لغات الجزيرة العربية، واللغات الأجنبية معزوة بأسمائها[9].

ففي إطار الحضارة العربية الإسلامية كان كثير من النحويين واللغويين يؤلفون بالعربية، ويعرفون الفارسية أو التركية. فسيبويه صاحب أقدم كتاب وصل إلينا في النحو العربي كانت لغته الأصلية هي الفارسية[10]، وهناك إشارات متناثرة في كتب اللغة والأدب يمكن تصنيفها في هذا الإطار من المعرفة اللغوية، إذ يروي الجاحظ خبراً عن قاص من قُصّاص البصرة ووعاظها وهو موسى بن يسار الأسواري فيقول: "كان من أعاجيب الدنيا، وكانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية وكان يجلس في مجلسه المشهور فتقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب، ثم يحول وجهه للفرس فيفسرها لهم بالفارسية فلا يدري بأي لسان هو أبين"[11] وكذلك ما ذكره الفيروزابادي في كتابه (البلغة) حيث قال: "المبارك بن المبارك بن سعيد النحوي أبو بكر الدهان (ت 439 هـ) كان يتكلم بالفارسية والرومية والتركية والزنجية وبالحبشية بأفصح كلام"[12]، ولعل ما نقله ابن جنى عن الأخفش (ت 211هـ) في تفسيره لنشأة اللغات يشير إلى ما نحن بصدده بشيء من التأويل الذي لا يلوي عنق النص المستشهد به، قال: "إن الله سبحانه وتعالى علم آدم أسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات: العربية والفارسية والسريانية والعبرانية والرومية، وغير ذلك من سائر اللغات فكان آدم وولده يتكلمون بها، ثم إن ولده تفرقوا في الدنيا، وعَلِق كل منهم بلغة من تلك اللغات فغلبت عليه واضمحلَ عنه ما سواها لبعدهم بها".[13] فمن خلال هذا النص تتبين إشارات لوجود قرابة بين اللغات لرجوعها إلى أصل واحد فجلال الدين السيوطي يعرض الكلمات الأعجمية في رأي من نادى بوجودها في القرآن الكريم، وأفرد لها مصنفين[14] عوضًا عن الأبحاث المتفرقة في كتابيه المزهر في علوم اللغة، والإتقان في علوم القرآن. وإن كنا نرى في النص المنقول السابق نوعاً من إدخال العامل الديني في العامل اللغوي، وهو أمر يبعد النص عن روحه. وإن كان عدم الدقة التي اتسمت بها أحكام بعض القدماء في نسبة بعض الألفاظ إلى لغات بعينها، وهو ما لاحظه عدد من الباحثين المعاصرين في الدراسات اللغوية التاريخية المقارنة[15].

ولعل أول من أشار إلى وجود قرابة لغوية بين لغتين ساميتين من علماء اللغة –حسب اطلاعي– هو الخليل بن أحمد إذ قال في مادة (كنع): "كنعان بن سام بن نوح ينسب إليه الكنعانيون وكانوا

يتكلمون بلغة تضارع العربية"[16]. على أن ذلك لا يعني معرفته الكنعانية، وإنما معرفته بصلة القرابة اللغوية بينهما وربما كان ابن حزم الأندلسي (ت 456 هـ) أكثر صراحة وهو يعرض لموضوع قرابة اللغات إذ يقول: "أن الذي وقعنا عليه، وعلمناه يقيناً، إن السريانية، والعبرانية، والعربية التي هي لغة مضر وربيعة لا لغة حمير، واحدة تبدلت بتبديل مساكن أهلها، فحدث فيها جرس كالذي يحدث من الأندلسي إذا رام نغمة أهل القيروان، ومن القيرواني إذا رام لغة الأندلس ومن الخراساني إذا رام نغمتهما"[17]. وقد لاحظ الجواليقي تقارب السريانية والعبرية وهذا ما دعاه إلى القول في كتابه التكملة: "والعبرانية معدولة عن السريانية، كما عدلت النبطية عن العربية كأن العبرانية بدوية السريانية"[18]. ويروي السيوطي في المزهر "عن ابن عبدالملك بن حبيب: كان اللسان الأول الذي نزل به آدم من الجنة عربياً، وإلى أن بَعُد العهد وطال، حرف وصار سريانياً، وهو منسوب إلى أرض سوري أو سوريانا، وهي أرض الجزيرة كان بها نوح -عليه السلام- وقومه قبل الغرق. قال: وكان يشاكل اللسان العربي، إلا أنه محرف"[19] وعلى الرغم من سيطرة الأسطورة السردية على دلالة النص، فإننا نستطيع استثماره بإشاراته المبهمة إلى وجود علاقات قائمة بين العربية والسريانية. ويخلص ابن حزم إلى قوله: "فمن تدبر العربية والعبرانية والسريانية، أيقن أن اختلافهما إنما هو من نحو ما ذكرنا من تبدل ألفاظ الناس على طول الأزمان واختلاف البلدان ومجاورة الأمم وأنها لغة واحدة في الأصل"[20] فإن هذه النصوص بالتأكيد تنم بما لا يدع مجالاً للشك عن معرفة بعض علماء العربية لهذه القرابة بين الساميات بل نجد منهم من ألف فيها وفي غيرها مؤلفات تناولتها من حيث الأصوات والتراكيب والأبنية والخواص، إذ أتيح لبعض اللغويين والمفكرين في ظل الدولة الإسلامية أن يعرفوا لغات متشابهة، من أصل واحد كالعبرية، والسريانية، والعربية، وأن يعرف بعضهم إلى جانب العربية لغات أخرى تختلف بنيتها عن بنية اللغات السامية مثل اللغة الفارسية، وهي لغة اندوأوربيه، واللغة التركية، وهي لغة تنتمي إلى مجموعة اللغات الطورانية. فأبوحيان الأندلسي كان ملماً ببعض اللغات الأجنبية، كالحبشية، والفارسية، والتركية وقد ألف في قواعد هذه اللغات فألف في التركية: (الإدراك في لسان الأتراك) و(زهو الملك في نحو الترك) و(الأفعال في لسان الأتراك)، وألف في الفارسية (منطق الخرس في لسان الفرس)، وألف في الحبشة (جلاء الغبش عن لسان الحبش)[21] و(مقارنة بين اللغتين العربية والحبشية)[22]. زيادة على ذلك تقترن الأخبار في هذا الإطار أحياناً بالتأصيل والتحليل اللغوي مما يدل على إلمام بعضهم بخصائص لغات أخرى مصحوبة بروح التخصص والتتبع. يقول ابن منظور في مادة زرجن: "وقال السيرافي: زرجون فارسي معرب شبَه لونها بلون الذهب لأن (رز) بالفارسية: الذهب، و (جون) اللون وهم يعكسون المضاف والمضاف إليه عن وضع العرب"[23]. وقد عرف ابن سلام اللغة السريانية وأداة التعريف فيها، وهي الفتحة الطويلة في أواخر الكلمات فقال: كما

ادخلوا (الألف واللام) في الطور وحذفوا الألف التي في آخر الحرف، فألزموه الإعراب في كل وجه، وهو بالسريانية (طورَا) على حال واحد في الرفع والنصب والخفض. وكذلك (اليم) وهو بالسريانية (يما) فأدخلت فيه العرب الألف واللام[24]. ونرى ذلك جلياً عند أبي حيان الأندلسي ت 745هـ إذ يقول: "وقد تكلمت عن كيفية نسبة الحبش في كتابنا المترجم عن هذه اللغة المسمى (بجلاء الغبش عن لسان الحبش)، وكثيراً ما تتوافق اللغتان لغة العرب ولغة الحبش في ألفاظ وفي قواعد من التراكيب النحوية كحروف المضارعة، وتاء التأنيث، وهمزة التعدية"[25]. وقد أدرك أبو حيان تشابها في بعض أوجه إعمال الحروف في العربية والعبرية يقول: "ويصنع الفلك، حكاية حال ماضية"[26] بفعل الواو، وهي بذلك صنو الواو العبرية التي تسبق الفعل المضارع فتصرف دلالته إلى الماضي. فقد ورد في العهد القديم عند الحديث عن قصة نوح، ويقول الله لنوح: ادخل أنت[27].

ويقول الجواليقي: "الناطور: حافظ النخل والشجر. وقد تكلمت به العرب. قال أبو حاتم: قال الأصمعي: هو الناظور، والنبط تجعل الظاء طاء"[28]. ومن الجدير ذكره أن العلماء العرب كانوا يرجعون إلى أصحاب اللغة الأصليين عندما تشكل عليهم المعلومات، سواء أكانوا من المسلمين أم من غيرهم، وذلك من أجل الوقوف والتعرف على مفردات الكلمات ويعتبرونهم أصحاب الرأي المعتمد فيما يتعلق بأصول الكلمات واستعمالها في لغاتهم. ويذكر ابن سيده مادة سجلاط فيقول: "السجلاط. قال أبو علي قال الأصمعي: السجلاط – لباس الهودج وهو رومي، قال: وسألت أمة من فصحاء الروم عن هذا ما اسمه عندهم فقالت: سجلاطس"[29]. وفي لسان العرب: "قال ابن الأثير: قال أبو عمرو: سألت بعض من أسلم من اليهود عن حمياطا، فقال: معناه يحمي الحرم ويمنع من الحرام ويوطئ الحلال"[30]. وكذلك سؤال الأزهري (ت 379 هـ) لأناس من أهل البحرين عن تسميتهم للنبات الذي يعرف في مصر والعراق بـ(بزر قطونا) فقالوا تسمى (حب الذُرّقة) وهي الاسفيوس معرب[31]. ولم تقتصر معرفة العرب المسلمين على اللغات الأخرى، بل نافسهم علماء العرب من اليهود والنصارى الذين نشأوا وترعرعوا في ظل الثقافة العربية فأصبحوا جزءاً من نسيجها، فأكثرهم مضطر بحكم دينه إلى إتقان لغة أخرى غير العربية على الأقل كالعبرية والسريانية بل كثير منهم يعرف لغات أخرى خارج عائلة الساميات، كالفارسية والهندية واليونانية واشتغلوا بمجال الترجمة واشتهرت منهم مجموعة من الأسر، وفي بغداد لمع نجم العالم سعديا سعيدين يوسف الفيومي (ت 945 هـ)، وهو يهودي الملة ترأس الحركة اللغوية العبرية، وكان يتتلمذ على اللغويين العرب ويحذو حذوهم[32]. وفي المغرب والأندلس ظهر فوج من علماء اليهود، اقتبسوا مناهج اللغويين والنحاة العرب، وطبقوها أيضا على اللغة العبرية، وأشهرهم أبو سليمان داوود بن إبراهيم الفاسي، الذي ألف معجماً ضخماً للغة

العبرية يقع في مجلدين كبيرين، وجعل شرحه للألفاظ بالعربية، ونص في غير موضع على التقارب والتشابه بين اللغتين.

ثم يأتي شيخ نحاة اليهود بلا منازع مروان بن جناح القرطبي المتوفى في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي فيكشف الصلة المتينة من حيث الأصل بين عدد لا بأس به من اللغات السامية وفي مقدمتها العبرية والعربية، وقد ألف باللغة العربية كتاباً في النحو العبري سماه (اللمع). ويعقد مروان بن جناح مقارنة لغوية بين اللسانين العربي والعبري فيقول: "وأما اعتلاله وتصرفه ومجازاته واستعمالاته فهو في جميع ذلك أقرب إلى لساننا من غيره من الألسن يُعلَم ذلك من العبرانيين الراسخين في علم لسان العرب النافذين فيه وما أقلهم"[33]. ويقول في موضع آخر "فلما رأينا هذا منهم لم نتحرج عن الاستشهاد على ما لا شاهد عليه من العبراني بما وجدناه موافقاً ومجانساً له من اللسان العربي إذ هو أكثر اللغات بعد السرياني شبهاً بلساننا"[34]. إلاّ أن الالتفات إلى بعض الحقائق اللغوية من التشابه في الأصوات أو الكلمات أو التراكيب، أو حتى ظهور دراسات فردية، فما هو إلاّ إشارات أولية إلى ظواهر لغوية يمكن إدراجها تحت التطور اللغوي، أو نشوء اللهجات، فهي لا تعني بالضرورة قيام دراسات لغوية تاريخية مقارنة على أصول وقواعد علمية، لأن هذه البدايات قد تكون وقفت عند حدود إثبات التشابه في جزئيات كثيرة، ولكنها لم تتطور إلى قواعد وقوانين عامة توضح الفروق بين اللغات الأقدم والأحدث وتفسرها، بحيث تفسر مسار التطور اللغوي وطريقه، كما لم تفض هذه المعرفة إلى استنتاج طبيعة العلاقات اللغوية القديمة ثم المغرقة في القدم بين اللغات، أو إلى تصنيف اللغات إلى عائلات أو مجموعات تتضح فيها بجلاء صلات القرابة بينها. وإنما كانت تلك هي البدايات الأولى التي تطورت على أيدي مجموعة من العلماء واللغويين في أوربا مع نهاية القرن الثامن عشر وطوال القرن التاسع عشر.

نتائج البحث

1- العرب أمة منفتحة على غيرها من الأمم والثقافات، واعتزازهم بلغتهم لايعني تهميش لغة الآخر.

2- معرفة علماء العربية باللغات السامية القديمة قبل معرفتها من قبل المستشرقين الغربيين.

3- معرفتهم بالأصل المشترك لهذه اللغات، والقرابات التي تجمعها.

4- قيامهم بنشر دراسات ومؤلفات في اللغات السامية، وعقدهم المقارنات بينها.

5- تعايش العرب مع اللغات التي عاشت تحت راية دولتهم، وشجّعوا ناطقيها على الحوار الثقافي وإبداء الآراء عن طريق المؤلفات والمصنفات.

الهوامـش

1- ابن قتيبة، طبقات الشعراء، ص 58.
2- لويس شيخو، شعراء النصرانية قبل الإسلام، ص 219.
3- ابن حجر العسقلاني، الإصابة، ج2 / ص 23.
4- إبراهيم السامرائي، فقه اللغة المقارن، ص 174.
5- مصطلح اللغات السامية مصطلح غير علمي، وهو توراتي المنشأ، إذ تنسب مجموعة من الشعوب إلى سام بن نوح، وقد اتخذ هذا المصطلح للتعبير عن مجموعة من اللغات التي ذكرت التوراة أن شعوبها الناطقة بها هم أبناء سام بن نوح، وقد سميت بتسميات أخرى، كاللغات العروبية أو لغات الجزيرة العربية، وهذه المصطلحات بمجملها غير دقيقة لإطلاقها على اللغات مجتمعة.
6- رمضان عبد التواب، دراسات وتعليقات في اللغة، ص 184.
7- ستتكيفتش، العربية الفصحى، ص 130.
8- عبد الله بن العباس، اللغات في القرآن، ص 30.
9- فقد ذكر لغات القبط، والنبط، والعبرانيين، والسريان والأحباش، ينظر ابن سلام، لغات القبائل الواردة في القرآن، ص 20، 44، 69، 105، 134، 135، 146.
10- محمود حجازي، علم اللغة العربية، ص 122.
11- أبو عثمان الجاحظ، البيان والتبيين، ج 2/ ص 10.
12- محمد الفيروزابادى، البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، ص 181.
13- أبوالفتح عثمان ابن جني، الخصائص، ج 1 / ص 41 ، 42.
14- المصنف الأول: المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب، والثاني: المتوكلي فيما ورد في القرآن من اللغات.
15- خليل حلمي، دراسات في المعاجم واللغة 431.
16- الخليل الفراهيدي، معجم العين، مادة كنع باب العين والكاف والنون.
17- ابن حزم الأندلسي، الإحكام في أصول الأحكام ج 1 / ص 34.
18- الجواليقي، تكملة ما تغلط به العامة، ص 209.
19- السيوطي، المزهر، ج 1 / ص 30.
20- ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، ج 1 / ص 34.

21- أحمد المقري، نفح الطيب، ج 2 / ص 552، 553.
22- خليل حلمي، دراسات في المعاجم واللغة، ص 415 . ولعله يقصد (كتاب جلاء الغبش عن لسان الحبش).
23- ابن منظور، لسان العرب مادة: زرجن.
24- أبوحاتم الرازي، كتاب الزينة، ج 1 / 77 ، 78.
25- أبوحيان الأندلسى، البحر المحيط، ج 4 / 163.
26- المصدر السابق، ج 5 / 163.
27- سمير استيتية، مجلة المجمع الأردني، ع 10، ص 63.
28- الجواليقي، المعرب، ص 334.
29- ابن سيده، المخصص، ج 4 / 35.
30- ابن منظور، لسان العرب، مادة: حمط.
31- الأزهري، التهذيب مادة: فطن.
32- خليل حلمي، دراسات في اللغة والمعاجم، ص 415.
33- حسن ظاظا، اللسان والإنسان، ص 160.
34- المرجع السابق، ص 161.

المصادر والمراجع

1- ابن جني، عثمان، 1986، الخصائص تحقيق محمد على النجار، الهيئة المصرية للكتاب.
2- ابن سلام، الهروي، 1984، لغات القبائل الواردة في القرآن، تحقيق عبد السيد، مطبوعات جامعة الكويت.
3- ابن عباس، عبدالله، 1978، اللغات الواردة في القرآن، تحقيق صلاح الدين المنجد، دار المثـــاب الجديد، بيروت، الطابعة الثالثة.
4- ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم، 1985، طبقات الشعراء، تحقيق مفيد قميحـــة، دار الكتـــب العلميـــة بيروت، الطبعة الثانية.
5- ابن سيده، على بن إسماعيل، د.ت، المخصص، لجنة إحياء التراث العربي، بيروت.
6- ابن حجر، العسقلاني، 1853، الإصابة في تمييز الصحابة، دار الكتب العلمية، بيروت.
7- ابن حزم، الأندلسي، د.ت، الإحكام في أصول الأحكام، إشراف زكريا على يوسف، مطبعة الإمام، مصر.
8- ابن منظور، جمال الدين، 1990، لسان العرب، دار صادر بيروت.
9- أبو حيان، الأندلسي، 1328هـــ، البحر المحيط، دار الكتب، القاهرة.
10- الأزهري، محمد، د.ت، تهذيب اللغة، تحقيق عبد السلام هـــارون، راجعـــه محمـــد النجـــار، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، والدار المصرية للتأليف، القاهرة.
11- الجواليقي، موهوب بن أحمد، 1936، تكملة ما تغلط به العامة، تحقيـــق عزالـــدين التنـــوجي، منشورات المجمع العلمي، دمشق.
12- الجواليقي، موهوب بن أحمد، 1965، المعّرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، تحقيق أحمد شاكر، مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة، الطبعة الثالثة.
13- حجازي، محمود فهمي، 1970، علم اللغة العربية، وكالة المطبوعات، الكويت.
14- خليل، حلمي، 1998، دراسات في اللغة والمعاجم، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الأولي.
15- الرازي، أحمد بن همذان، 1957، كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية، تحقيق الهمذاني، دار الكتاب العربي، القاهرة.
16- السامرائي، إبراهيم، 1968، فقه اللغة المقارن، دار العلم للملايين، بيروت.
17- ستتكيفتش، د.ت، العربية الفصحى، ترجمة محمد عبد العزيز، دار النمر، القاهرة.

18- السيوطي، عبد الرحمن، د.ت، المزهر في علوم اللغة، تحقيق محمد أبو الفضل وأخرون، دار الحرم للتراث.
19- شيخو، لويس، 1967، شعراء النصرانية قبل الإسلام، دار الشرق، بيروت.
20- ظاظا، حسن، 1971، اللسان والإنسان، مطبعة المصري، القاهرة.
21- عبد التواب، رمضان، 1994، دراسات وتعليقات في اللغة، مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى، القاهرة.
22- الفراهيدي، الخليل بن أحمد، د.ت، كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي، وإبراهيم السمامرائي.
23- الفيروزأبادي، محمد يعقوب، 1987، البلغة في ترجمة أئمة النحو واللغة، تحقيق محمد المصري، مركز المخطوطات والتراث، الطبعة الأولى.
24- المقري، أحمد، د.ت، نفح الطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.